التنظيمات الشعبية بمصر في عهد المماليك (الحرافيش انموذجاً)

نعيمة عبدالسلام أبوشاقور

جامعة المرقب

الملخص:

تركز اهتمام معظم المؤرخين المسلمين بمختلف طبقاتهم حول النخب والبناء السلطوي متضمناً سيرتهم السياسية والشخصية وانجازاتهم المختلفة، وكان مصير كتابة تاريخ الطبقات العامة أو من عُرفوا بالمناسر والزعار والعيارون والشطار والحرافيش قليلاً، إلا إن ذلك لا يعني اختفاء ذكرهم بشكل نهائي، إذ وجدت بعض المصنفات التاريخية التي عالجت التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وحاولت الخروج بنظرية تستوعب حركة التاريخ ومسببات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

ولئن كانت المصادر التاريخية التي أولت اهتمامها بالنخب كثيرة، أسهمت في تقديم مادة علمية رصينة انتثرت بين ثناياها أخبار العامة، فقد وجدت أعمال مبهرة بالفعل ومتميزة حملت وجهة نظر عميقة ومبدعة حول حركة التاريخ وتأثير مختلف الطبقات الاجتماعية فيه، منها على سبيل المثال فيما يتعلق بتاريخ مصر أعمال المقريزي وهي: جملة من المصادر التاريخية ذات البعد المختلف والملهم من بينها كتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) و(كتاب السلوك في دول الملوك) و(الخطط المقريزية)، ولدينا كذلك كتاب محمد بن خليل الأسدي، المعنون بـ (التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار).

من هذا المنطلق فإن الكتابة من جانب البحّاث في مجال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي قليل، نتيجة صعوبة الحصول على المادة العلمية، إلا أن ذلك لا يعني عدم إمكانية البحث في هذه الجزئية، وهو ما تحاول هذه الدراسة تأكيده حيث إن موضوعها له علاقة بواحدة من الفئات الاجتماعية المهمشة وتحديداً الحرافيش، وهي فئة اجتماعية غامضة ولكنها موجودة وإن كانت غير محددة المعالم بشكل كافٍ، لذا سيكون دور هذه الدراسة تسليط الضوء عليها ومحاولة فهمها وتحديدها ومعرفة تنظيمها ومتابعة أحوالها بل وتأثيرها في المجتمع المصري في العهد المملوكي.

وسيعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي، محاولة نقد النصوص ومعرفة أبعادها، مع الاعتماد قدر الإمكان على النصوص التاريخية المهتمة بهذه الفئة، ومحاولة تحليل نصوصها للوصول

إلى فهم طبيعتها.

المقدمة:

يغلب الحديث في مصادرنا عن الفقراء بشكل عام دون تقسيمهم إلى فئات محددة باستثناء التقسيم الاجتماعي المعروف والمتمثل بالأرامل والأيتام الذين فقدوا معيلهم وهو الزوج أو الأب أو الأخ أو الابن رغم أن مصطلح الفقراء يشمل الرجال كذلك ممن لا مال لهم، وهم الذين لا يجدون وظائف تدر عليهم مبالغ مالية تمكنهم من العيش الكريم(ابن منظور، (د.ت)، 3444- 3445)، ولكن التدقيق في المصادر يجعل الباحث يدرك وجود فئات أخرى من الفقراء لهم تسميات أخرى مختلفة.

قسم المقريزي المجتمع المصري إلى سبع طبقات، الأولى: أهل الدولة أو السياسيون، والثانية: التجار الأغنياء، والثالثة: الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، والرابعة: الفلاحون من سكان الأرياف والقرى، والخامسة: الفقراء ومعظمهم من الفقهاء وطلاب العلم وكثير من أجناد الحلقة وغيرهم، والسادسة: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والسابعة: المتسولون(المقريزي،2007م، 147)، كما أورد لفظاً آخر معبراً عن حالة الفقر التي يعاني منها الناس، وهو لفظ الصعلوك(المقريزي،2007م، 95)، الذي يعني لغوياً الفقير الذي لا مال له(ابن منظور،(د.ت)، 2451)، وأورد كذلك لفظاً ثالثاً معبراً عن الفقراء وهو المتجملون، ويعني الفقير الذي لا يظهر فقره للناس(المقريزي، إغاثة الأمة، 103)، كما وصفهم بأهل الخصاصة (المقريزي، 2007م، 150).

إن عدم اهتمام المصادر الإسلامية بالفئات الاجتماعية ذات الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتدني أو ما يطلق عليهم العامة أو الفقراء يجعل الحديث عنهم يتم في سياق محدد وضمن نطاق النخب الاجتماعية أو في معرض الحديث عنهم، كأن يكون عند الحديث عن أعمال الخير التي يقوم بها أحد السلاطين أو أبنائهم أو الأمراء أو المشائخ كالإنفاق على العامة أو الفقراء، حيث كان السلاطين والأمراء يقربون الفقراء، وينفقون عليهم، ويحرصون على تأسيس المدارس والمساجد والخوانق للصوفية والخانات للسبيل، وترك أوقاف للمجاورين لها، وذلك لمنحهم مظهراً اجتماعياً جيداً، حيث يعتقد بعضهم أن بناء المنشآت الدينية جاء وسيلة للتقرب إلى الناس، وتقديم أنفسهم بأنهم متدينون بينما تصرفاتهم في الواقع تعكس شيئا غير ذلك(محمد، 2011م، 36).

تقدم المصادر التاريخية المطلع عليها نماذج كثيرة للتدليل على ما سبقت الإشارة إليه على سبيل المثال لا الحصر منها: رواية عن السلطان الملك الأشرف أنه لما عزم التوجه إلى عكا أمر بجمع القراء والعلماء والقضاة والأعيان بتربة والده السلطان الملك المنصور، وتصدّق بكمية كبيرة من المال

والثياب، وفرّق على القراء والفقراء مالاً كثيراً، وفرّق في أهل المدارس والزوايا والخوانق والربط مالاً وثياباً، ثم عاد إلى قلعة الجبل واستقل ركابه منها (النويري،2004م، ج31، 125).

كما رُوي عن الصاحب الوزير بهاء الدين أبي الحسن علي بن محمد بن سليم المعروف بابن حنا أنه كان حسن الظن بالفقراء، كثير الإكرام لهم ولا يملّ من حوائجهم، ويتشفع الناس عنده بهم فلا يردهم، وقد بنى هو وأولاده الأبنية العظيمة والمساكن البديعة والمنتزهات، وعمّر مدرسة بزقاق القناديل بمصر، ووقف عليها أوقافاً وكان كثير الصدقة(النويري، 2004م، ج 30، 248- 249؛ ابن كثير، 1992م، ج 18، 327؛ ابن بطوطة، 1997م، 214، 216، 225- 227).

وكان الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار(*) كثير الخير والإحسان إلى خلق الله حيث بنى المدارس والمساجد والجوامع، وله مدرسة موقوفة على طائفة الشافعية في أسنا وهي منطقة من أعمال قوص، وله مدرسة أخرى على ساحل البحر، بنى بجوارها مسجد يجتمع فيه الفقراء القرندلية في شهر رمضان من كل سنة، فيذبح لهم في كل يوم رأس غنم، وما يحتاجون إليه من التوابل والخبز(النويري، 2004م، ج 30، 248- 249).

وذُكر أن الشيخ الصالح ضياء الدين محمد المعروف بالمعبدي كان ينفق على الفقراء الواردين، ويقدم لهم الأطعمة الفاخرة ويفرجهم في المنتزهات(النويري، (د.ت)، ج 33، 185)، ويوجد للفقراء ذكر عند الحديث عن عادة التفرج التي يمارسها العامة عند حدوث احتفال أو مرور لموكب السلطان لحظه خروجه من قصره باتجاه الميدان، أو إلى أي مكان أخر يقصده لاسيما أوقات الخروج المتعلقة بالرحلات اليومية التي يعلم العامة مواعيدها فينتظرونها بهدف التفرج على موكب السلطان(النويري، (د.ت)، ج 33، 13، 177)، أو اغتنام فرصة مروره لتقديم الشكوى له (اليوسفي، 1986م، 371).

وقد ذُكر الفقراء عند الحديث عن الانتفاضات وحالات السلب والنهب التي يقومون بها في حالة اختلال الأمن، منها ما روي عنالخلل الأمني الذي وقع في القاهرة وضواحيها عام (633هـ/1235م) ووصل إلى القلعة حين قامت عصابة من المناسر والشلوح – كما يصفها المصدر- بالقتل والنهب وتعرضوا للعربان عند القلعة وحدث صياح وارتفعت الأصوات، فسمعها السلطان بيبرس وحين جاءه التقرير الصباحي لم يجد فيه ذكر للحادثة، فأنكر على متولي القاهرة عدم

(*) **أمير جاندار:** لقب للذي يستأذن على السلطان والأمراء في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل فلا يسمح بالدخول إلا لمن يثق فيه، (دهمان، 1990م، 20)؛ القرندلية أو القرندرية: هي طائفة معروفة والقرندرية تعني الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم نسبة إلى الشيخ جمال الدين الساوي، وقرندرية بالعربية أما بالفارسية فهي قلندرية: وهم جماعة من الدراويش التانهين لا تخلو جماعتهم من تطرف (ابن بطوطة، ج 1، 199).

ذكره لها، فعلل الأمر بأن نوابه وعددهم ثلاثة وأربعون نائباً لم يطلعوه عليها، فأصدر السلطان أمراً بقطع أيديهم فمات بعضهم جراء ذلك (النويري، 2004م، ج 30، 71- 72).

كما ورد ذكرهم كذلك عندما حُملت جثة الأمير جمال الدين آقش الرومي الحسامي إلى القاهرة، فتجمع عدد كبير من الغوغاء والعامة والسوقة –كما ذكر المصدر- تحت القلعة وقاموا بسب الملك المظفر، فأمسك بعضهم وضُربوا وطيف بهم، فلم يرتدعوا مما جعل السلطان يجلس مجلساً عاماً، ويحضر الخليفة المستكفي بالله حيث جدد له البيعة وكتب كتاباً بذلك وقرئ على المنابر فنادى العامة من كل جانب ليس لنا سلطان سوى الملك الناصر (النويري، (د.ت)، ج 32،108- 109)، ويبدو أن سبب رفضهم سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير يرجع لربطهم بين تملكه وقصور نهر النيل عام (709هـ/1309م) المرتبط بتدني الحالة الاقتصادية(ابن تغري بردي، 1997م، ج2، 61).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه السياق يتعلق برؤية حركات العامة وثوراتهم ما إذا كانت قد شكلت بعداً أيديولوجيا يتضمن موقفا فكريا، أم أنها وكما يعتقد بعض الباحثين مجرد صياح للجوعى(عاشور، 1992م، 27)، ولا تحمل فكرة إصلاحية، وإنما كانت محاولة لإثارة الشغب للحصول على مكاسب مادية أثناء غياب الأمن، مستخدمين أخباراً كاذبة، حيث رُوي أن العامة أثاروا الشغب في الإسكندرية عام (727هـ/1326م) وهاجموا أحد القصاص، فتدخل متولي الإسكندرية وأطلق السهام على العامة، فطلب قاضي الثغر عماد الدين الكندي من متولى الثغر التوقف ولكنه رفض فقال للعامة: قد حل لكم قتالهم، مما أسفر عنه زيادة تحركات العامة التي دفعتهم إلى مهاجمة دار ريس الخلافة وإخراج من بالسجن من معتقلين ومنهم مجموعة من الأمراء، وقتل عدد من العامة في هذه الفتنة، فتدخل السلطان وتمكن من القضاء على التمرد(النويري، (د.ت)، ج 33، 177- 178).

وبينت حادثة أخرى بعض حالات تمرد العامة حيث أخبروا الأمير ايدغمش أن صوفية الأعاجم بخانقاه قوصون يرمون الناس بالنشاب، وأشاعوا أن الأمير ايدغمش أمرهم بنهبها، فنهبوها وخربوها، وهاجموا في يوم آخر بيت القاضي الحنفي البغدادي ونهبوا كل محتوياته ،واعتدوا على القاضي بالضرب وأخرجوه من بيته(ابن تغري بردي، 1997م، 72- 73)، وكان النهب يتم غالباً في حالة حدوث المجاعات، كما حدث ذلك عندما فُقد الخبز وحدثت مجاعة عام (736هـ/1335م)(اليوسفي، 1986م، 300).

تم الربط بين الفقراء وبعض الفئات الاجتماعية الذين أُطلق عليهم مصطلح الطبقات الشعبية، وهم مجموعة كبيرة من الباعة، والسوقة، والسقائين والمكاريين، والمعدمين، أو أشباه المعدمين، وهم يمثلون من وجهة نظر بعضهم جميع الرعايا ممن سكن المدن باستثناء رجال القلم، فيما عرّفهم بعضهم الآخر بأنهم أهل المهن والصنائع والتجار والخدم والجند واللصوص والعيارين، والشطار(الوقاد، 1999م، 23)، بالإضافة إلى المتصوفة وهم من الفقراء الذين سكنوا الزوايا المعروفة في مصر بالخوانق، وقد ذكر ابن بطوطة أن كل زاوية بمصر كانت مخصصة لطائفة معينة من الفقراء، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، وقد خُصصت لهم مقادير محددة من الطعام والكسوة، ومرتب شهري قُدر في زمانه ما بين عشرين إلى ثلاثين درهما للشخص الواحد، فضلاً عن الحلوى والسكر والصابون وأجرة الحمام وزيت الاستصباح، وكانت بعض الخوانق مخصصة للعزاب وأخرى للمتزوجين(ابن بطوطة، 1997م، 204)، كما كان بعض من الجند البطالين يقيمون بها(النويري، (د.ت)، ج 32، ص 97).

لقد عمل الفقراء في مهن متعددة منها حرفة الطبخ، والقصابة (الجزارة)، والباقلانيون الذين يبيعون الباقلاء، الرواسون الذين يبيعون رؤوس الأغنام، وصناع الحلوى، واللبانيون الذين يبيعون اللبن ومشتقاته، والخواصون الذين يصنعون القفف من سعف النخيل، والقفاصون الذين يصنعون الأقفاص من الجريد، والحلاقون والفاخرانيون الذين يصنعون الأواني الفخارية وغيرهم، والتي لم يكن مردودها المالي كبيراً مما ساعد على انتشار الفقر(الوقاد، 1999م، 134–139).

اتخذت الطبقات الشعبية من أسوار القاهرة وحدودها مأوى لها، وأقامت أكواخاً خشبية وعزب الصفيح للإقامة فيها، بينما تزايد الحرافيش بشوارع القاهرة، وغطت أجسادهم شبه العارية الثياب المقطعة، وبلغ عددهم بين خمسين ومائة ألف شخص يعيشون في العراء، وكتب الرحالة فريسكوبالدي الذي زار القاهرة عام (785هـ/1383م) أنه كان ينام بها أكثر من مائة ألف شخص في العراء بسبب الحاجة إلى المساكن، وينقل الرحالة البندقي الإيطالي سيمون سيجولي (الذي زار مصر خلال القرن 8ه/14م) عن تاجر مسيحي قوله: أن بها أكثر من خمسين ألف نسمة لا يملكون سقفاً يأويهم ليلاً، فينامون على المصاطب التي تبنى خارج الدكاكين أو المساكن، ولاحظ جوزفانجيستل الذي زار مصر عامي (887- 888هـ/1482- 1483م)، أن كثيراً من الناس يعيشون في خيام المدينة، وفي حفر الأرض بسبب نقص المساكن (عاشور، 1992م، 62- 63).

كما لاحظ الرحالة دؤوب الذي زار مصر أثناء عهد سلاطين المماليك وجود عدد كبير من

الفقراء ليس لهم مأوى في النهار والليل سوى الطرقات، وأنهم يهيمون فيها وأجسادهم شبه عارية، وكان هناك تفاوت في تقدير عددهم حيث قُدروا ما بين خمسين ألف ومئة ألف، وقد اندهش برنارد دي بريدنباخ (القرن 9ه/15م) من كثرة الشحاذين بالقاهرة، الذين أحاطوا به طلباً للإحسان منه ((عاشور، 1992م، 45)، ويعد الحرافيش من بين الفئات التي تصلح أن نطلق عليها مصطلح الطبقات الشعبية وتتكون من المعدمين والمتسولين ممن ليس لهم حرفة محددة معروفة تدر عليهم أموالاً.

تعريف الحرافيش:

تعرف الحرفشة لغوياً: بأنها غلظة أو فظاظة، أو قلة تهديب، وتعني حالة الرجل من سفلة الناس وأراذلهم (دوزي، 1981م، ج 3، ص 135)، ويقال "احرنفش الديك: تهيأ للقتال... وكذلك الرجل إذا تهيأ للقتال والغضب والشر... واحرنفشت الرجال إذا صرع بعضهم بعضاً، والمحرفش للشر: تهيأ له"(ابن منظور، (د.ت)، مادة (حرفش)، 840)، وهي عبارات تدل على الشرير أو الذي يقوم بأفعال شريرة.

ويجمع حرفوش على حرافيش وحرافشة، وهي الكلمة الصحيحة وليس حدفوش كما يستخدمها بعضهم، فيقال: كان ذميم الخلق حرفوشاً، وليس ذميم الخلق حدفوشاً، وفي معجم ألكالا تقابل كلمة حرفوش لفظة (Roncero) وهي لفظة تعني متشرداً، متسكعاً، لأنه يترجم الكلمة إلى زُلاع، وهي عنده كذلك (Mostenco) وتعني كذلك متشرداً ومتسكعاً (دوزي، 1981م، ج 3، 135- 136)، ويعرّف بأنه الذي ليس بصاحب صنعة أو حرفة، ولا يملك دكاناً (دهمان، 1990م، 60).

والحرفوش مصطلح ظهر منذ العهد الأيوبي، وهو يعبر عن فرقة شعبية من الرجالة في الجيش الأيوبي وفق أحد الآراء (محمد، 2011م، 22)، فيما يعتقد آخر أنه لقب اتصل منذ بداية العصر الأيوبي بجماعة من أحط طبقات المجتمع، أكثرهم من الشحاذين والمعوقين والمصابين ببعض العاهات، تميزوا بألبستهم الرثة ونزعتهم إلى الهرطقة واستعدادهم للثورة والفتنة في كل ظرف، ويُعتقد أن الحرافيش كانوا موجودين قبل هذه التاريخ ولكنهم حملوا أسماء مختلفة مثل: العيارين والشطار والزعار وغيرها(الخطيب، 1996م، 141)، واستمروا موجودين خلال عهد المماليك (النويري، (د.ت)، ج 33، 10، 12؛ اليوسفي، 1986م، 300، 398- 399، 450).

بيد أن كل حي توجد له خصوصية مصانة بفعل شبان ينظمون أنفسهم في شكل مجموعة (زعار- عيارون- فتيان) لهم بعض المثل الأخلاقية، وتصفهم السير الشعبية بالشجاعة والمروءة، ومن

مهامهم تحقيق مآرب العامة كلما دعت الضرورة، فهم مجموعة من الصعاليك والشطار والفتيان والزعار والحرافيش وأصحاب المهن الحقيرة وأشباهم من المعدمين والفقراء والجياع والعاطلين الذين عاشوا في فقر، ولهم القدرة على الاقتصاص من الفئة الأعلى سياسياً واجتماعياً عن طريق اللصوصية والسيف أو التدبير وبمقدورهم تهييج العامة بشكل جماعي (عاشور، 1992م، 97).

نماذج من تنظيمات الفقراء في العهد المملوكي:

نلمس من خلال بعض الروايات أن الفقراء نجحوا في تنظيم أنفسهم في جماعات محددة تحمل فكرة واضحة خلال العهد المملوكي، فقد ذكرت رواية تعود لعام (706هـ/1306م) أن فقيراً أعجمياً اسمه براق جاء إلى دمشق ومعه مجموعة من الفقراء، وكان لهم شعار يتمثل في حلق اللحية مع الإبقاء على الشارب، ويرتدون كلاوت من اللباد الأبيض وفوقها عمامة وفوق الكلاوت قرون ومعهم أجراس، فأنزلهم نائب السلطنة بالمنيبيع، ورتب لهم راتباً كثيراً ثم توجه براق إلى القدس ورغب في دخول الديار المصرية فلم يؤذن له فرجع، وكان لهم عقوبات منها أن من أخر الصلاة عن وقتها ضرب أربعين سوطاً، وتذكر رواية أخرى أن الشيخ تقي الدين الرجيحي بن سابق بن هلال بن يونس كان شيخ الفقراء اليونسية بدمشق، الأمر الذي يرجح وجود نوع من التنظيم لبعض الفقراء في بعض ولايات الدولة المملوكية (النويري، (د.ت)، ج 32، 91، 101)، كما يذكر أن الشيخ نجد الدين الاقصرائي نسبة إلى مدينة أقصرة من بلاد الروم كان يلقب بشيخ شيوخ الفقراء بديار مصر (ابن بطوطة، 1997م، ج 1، 219)، مما يدلل على وجود محاولات تنظيمية داخل مصر نفسها.

الحرافيش خلال العهد المملوكي:

أطلق مصطلح الحرافيش في عهد المماليك على مجموعة من الفقراء الذين امتهنوا النهب والسرقة،وانتظموا في تنظيمات شعبية (ابن دقماق، 1985م، ج 2، 142، 176)، ولعل أول ذكر لهم في المصادر المطلع عليها كان في عهد السلطان الظاهر بيبرس وتحديداً عام (661هـ/1263م)، وذلك حين غلت الأسعار، وعدمت الغلة، فجمع السلطان الحرافيش وعدهم، وقسمهم فأخذ لنفسه خمسمائة، ولولده الملك السعيد خمسمائة، ولنائبه بيبلكالخازندارثلاثمائة، وفرق البقية على الأمراء، وأمر يعطى كل حرفوش في كل يوم رطلين خبز (ابن دقماق، 1985م، ج 2، 142، 72)، كما أنهم كانوا يترصدون الأمراء في الطرق، ويستهزئون بهم في حالة تعرضهم للمصادرة من قبل الجهاز الإداري (ابن الفرات، (د.ت)، ج 8، 177).

وقد ذكر ابن بطوطة أن الحرافيش "طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة" (ابن بطوطة،

1997م، ج 1، 214)، كانوا يحصلون على معونة من الأمراء، مثل: الأمير طُشط الذي سجنه السلطان قلاوون "فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة، ونادوا بلسان واحد: يا أعرج النحس، يعنون الملك الناصر سيف الدين قلاوون أخرجه فأخرجه من محبسه"(ابن بطوطة، 1997م، ج 1، 214)، الأمر الذي يدل على كبر حجم الحرافيش، وقدرتهم على الضغط على السلاطين للوصول إلى بعض الاستحقاقات والمطالب، رغم وجود من يعتقد أن الحرافيش لم يتمكنوا من إلزام السلاطين بتحقيق مطالبهم (الوقاد، 1999م، 164) ، وهو ما تنفيه رواية ابن بطوطة السابقة.

أصبح الحرافيش أصحاب سطوة تخشاها السلاطين (الوقاد، 1999م، 44)، وقد استفاد العوام من منازعات أمراء المماليك الذين حاولوا اكتساب العامة إلى جانبهم كما حدث عام (707هـ/1307م) وكذلك حينما اشتدت المنافسة بين الناصري ومنطاش عام (781هـ/1379م) فتقرب منطاش من العوام (الوقاد، 1999م، 45)، أضف إلى ذلك انضمام بعض الأمراء إلى الحرافيش كالأمير بيليك الذي كان أحد مماليك السلطان بيبرس وحين أصبح فقيراً انضم إلى الحرافيش (ابن إياس، 2008م، ج1، ق 2، 99، 112)، فضلاً عن علاقة الأمير طشط بالحرافيش (ابن بطوطة، 1997م، 24).

ويُعتقد أن تزايد عدد الحرافيش جاء نتيجة سياسة الدولة الاقتصادية، والتي أسهمت في زيادة الضرائب المفروضة على الفئات المعدمة، مما دفع كثيراً منهم إلى هجرة قراهم باتجاه المدن وتحولهم إلى حرافيش (المقريزي، 2007م، 118).

لم يكن الحرافيش مجرد مجموعة فقيرة دافعت عن حقوقها باستخدام عدة وسائل منها التدخل في عدم تنفيذ العقوبات التي حكم بها السلاطين على بعض الأمراء الذين كانوا يقدمون الدعم للحرافيش، وإنما امتهنوا السلب والنهب في حالات الحرب، حيث يبدو أنهم كانوا يرافقون الجيوش المملوكية بهدف الحصول على جزء من الغنائم عن طريق السلب، فقد ورد في أحداث عام (680هـ/1281م) أنهم رافقوا جيش المماليك لمحاربة المغول في الشام، ونهبوا كميات كبيرة من الأقمشة والأمتعة والخزائن والسلاح (ابن تغري بردي، 1992م، ج 7، 259).

إن عمل الحرافيش في السلب والنهب قد لا يكون مبرراً كافياً لتغليب صفة العشوائية عليهم، إذ يبدو أنهم حاولوا تنظيم أنفسهم في شكل مشيخة، يقودها شخص منهم حيث ذكر ضمن أحداث عام (850هـ/1446م)، أن شخصاً اسمه حسن تولى المشيخة، بعد شخص آخر، اسمه أبوبكر عن طريق بذل مال له (السخاوي، 2002م، ج 1، 303)، مما يعطيها صفة تنظيمية، وإن كانت

بدايتها، قد اتسمت بشيء من العفوية، رغم أن بعضهم يعتقد أن السلاطين قد استحدثوا لكبيرهم منصب سلطان الحرافيش بهدف ضبط هذه الجماعة من باب الحد من طغيانهم تجاه الدولة نتيجة نزعتهم للهرطقة واستعدادهم للثورة والفتنة في كل ظرف (الخطيب، 1996م، 141).

وتعتقد الباحثة أن تنظيم الحرافيش يشبه إلى حد كبير العيارين والشطار، الذين ظهروا في بغداد خلال الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون، فقد نشأت تفسيرات كثيرة لظهورهم، منهم من يجعلهم حركة اجتماعية ثورية بين العامة، ظهرت بسبب التباين الاقتصادي، وسوء الوضع المعيشي، مما يصنف ثورتهم بأنها جاءت ضد الطبقة الثرية، والتجار في الأسواق، والسلطة وممثليها، فيما يرى أخر أنهم كانوا فئة فقيرة من الطبقة العامة المحرومة، التي وقفت في مواجهة الطبقة المترفة الغنية، لذا كانت في بدايتها عبارة عن تجمعات بشرية غفيرة، تعاني غلاء المعيشة ويمزقها الجهل والتشرد، وتهدف إلى تحسين أوضاعها المهنية الاقتصادية والاجتماعية (الدوري، 1995م، 108–111؛ عارف، 2011م، مج 7، ع 25، 154).

كما أنها لا تختلف في توجهها عن تنظيم الصعاليك الذي قاده عروة بن الورد، فقد كان يُسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه، (ابن منظور، (د.ت)، مادة (صعلك)، ص 2452)، حيث يعتقد أن وجود القيادة أو الزعامة كان من أجل دوره في توزيع ما يحصلون عليه من أموال بطريقة عادلة عليهم، ولهم اهتمام بالفقراء والأقوياء منهم يهتمون بالضعفاء محققين نوعاً من التآلف والتضامن الاجتماعي (Gibb T. p 54 Note 169، ابن بطوطة، 1997م، ج 1، 214).

بدأ الحرافيش يميلون إلى تنظيم صفوفهم وتبني رؤى وأفكار جديدة ثورية تحمل مفاهيم نفعية من خلال الاستعانة بقيادات من المماليك السلطانية، ولعل ذلك يرجع إلى وجود مصالح مشتركة لدي الطرفين، إذ يبين أحد النصوص ضمن أحداث عام (841هـ/1437م) أن أحد المماليك السلطانية وهو دولات خُجا الظاهري والي القاهرة ومحتسبها، الذي يرجع أصله إلى الجنس التركي، ويعتبر من جملة الحرافيش المماليك السلطانية، حيث يعطي هذا النص للحرافيش بعدا أخر من خلال تصنيفهم بأنهم حرافيش المماليك السلطانية، الأمر الذي يدل على وجود تصنيفات مختلفة للحرافيش من بينها الحرافيش السلطانية، وتضيف الرواية وصفاً للحرفوش دولات خُجا بأنه من أوباش مماليك الظاهر برقوق، ولعل تلك الصفة تنبع من سوء الخلق الذي اتصف به (ابن تغري بردي، 1992م، ج 14، 369- 370).

إن اختيار الحرفوش دولات خُجا رغم صفاته السيئة لبعض المناصب في دولة المماليك يرجع لسياسته في قمع المفسدين حيث ولاه السلطان الأشرف الكشف ببعض الأقاليم، فأباد المفسدين وقويت حرمته، فصار ينقله من وظيفة إلى أخرى حتى ولاه القاهرة مرتين ثم ولاه الحبسة بها (ابن تغري بردي، 1992م، ج 14، 370).

إن شخصية الحرفوش دولات خُجا مثيرة للجدل بشكل كبير، إذ إنها تطرح تساؤلات متعددة حول النظام المملوكي من ناحية، وهي معبرة من سياسة دولة المماليك من ناحية ثانية، فابن تغري بردي يصف الحرفوش دولات خُجا بأنه كان جاهلاً وظالماً وفاسقاً وخبيثاً، وأنه ولي حسبة القاهرة رغم عدم إسلامه (ابن تغري بردي، 1992م، ج 14، 274، 370)، رغم أن الحسبة ولاية قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن شروط المحتسب أن يكون عالماً من أهل الاجتهاد ليجتهد رأيه (الحنبلي، 2000م، 285)، ومن المنطلق الشرعي لا يمكن تولية الحسبة لمحتسب غير مسلم، ولكن بسبب إعراض السلطان عن الاهتمام بها أصبح المحتسب يقدم رشاوى لتوليها، ولم يعد لها أهمية بين الناس (الماوردي، (د.ت)، 339)، ولعل ذلك ما دفع السلطان الأشرف برسباي إلى اختيار الحرفوش دولات خُجا لمنصب الحسبة، حيث تذكر الرواية أن الطاعون الذي انتشر في القاهرة جعل الناس تميل إلى القول بأن السبب يكمن في انتشار المفاسد بها مما جعل السلطان الأشرف برسباي يختار دولات خُجا لمنصب الحسبة، الأمر الذي نتج عنه منع النساء من الخروج للأسواق بسبب تبرجهن، وأذن للإماء والعجائز فحسب بالخروج لقضاء الحوائج ومنع السيدات من الخروج إلا للحمامات العامة على ألا يبقين بها إلى الليل (ابن تغري بردي، 1992م، ج 14، 274- 275).

تقدم رواية ابن تغري بردي دلائل عن الخلل الذي نشأ في نظام التربية المملوكي والذي بدأ واضحا في عهد المماليك الجراكسة، فالمماليك السلطانية يمثلون العمود الفقري للجيش المملوكي، وترجع قوتهم إلى تلقيهم تربية جيدة في الطباق أتاحت لهم الحصول على تربية راقية ذات مستوى عال ومحترف في الفنون القتالية فضلا عن حفظهم القرآن الكريم وتعليمهم أحكام الدين الإسلامي (ضومط، 1980م، 29).

إن إدراج أوباش المماليك السلطانية في نظام الحرفشة يجعل تنظيمهم لا يمثل فقط وجهة نظر الفقراء أو العامة، وإنما يمثل وجهة نظر كل من له مصلحة من الجند البطالين الذين لم يتحصلوا على أخباز أو ممن أراد الحصول على مكاسب معينة من خلال الانضمام إليها (النويري، (د.ت)، ج33، 10).

ولعل الربط بينهم وبين عملية النهب التي تناولتها المصادر جاءت بسبب الرغبة في تشويه الهدف الذي نادى به الحرافيش، لاسيما والحرافشة كانت تنظيما يفوق ما يمكن اعتباره حركة عرضية، فقد أورد ابن إياس في أحداث عام (793هـ/1391م) وفاة علي بن علي الجعيدي، الذي وصفه بسلطان الحرافيش، وله حرمة وافرة عليهم، فلم يخلفه أحد بعده (ابن إياس، 2008م، ج1، ق 2، 442)، مما يدل على قوة تنظيمهم، وكثرة أعدادهم (ابن بطوطة، 1997م، 214)، وإن كان النص يرجح أن تنظيم الحرافيش قد اختل وضعف بعد عام (793هـ/1391م).

ويمكن استنتاج أن تنظيم الحرافيش، قد بدأ باعتباره حركة قام بها الفقراء، بهدف محاولتهم تحسين وضعهم المعيشي، من خلال الحصول على القوت، باستخدام النهب والسلب، ولكنه تحول إلى حركة تحمل فكراً ثورياً، مما جعله يزداد قوة بفعل من انضم إليه، ممن لديهم مطالب محددة، تتجاوز الحصول على الغذاء، إذ كانت لهم مواقف أخرى منها رأيهم في سياسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع النصارى، وذلك في أحداث عام (721هـ/1321م) (النويري، (د.ت)، ج33، 12)، كما أن الدولة أسهمت في تزايد عدد المنضمين له، بسبب عدم محاولتها معالجة الفقر الذي عاني منه كثير من المصريين آنذاك، من فئات اجتماعية واقتصادية مختلفة، واقتصرت معالجتهم على إعطائهم القوت، لاسيما خلال الأزمات، ولم تقدم معالجة واضحة ومحددة، تقضي من خلالها على حالة الفقر التي عاني منها المصريون بسبب عدم قدرتها أو رغبتها في معالجتها(*).

كانت أعمال الخير والإحسان التي تقوم بها السلطة الحاكمة من السلطان والأمراء والأغنياء تهدف إلى السيطرة على الخلل الاجتماعي الذي يسببه الفقراء لاسيما العاطلون منهم وهي على شكل صدقات ذات دور مهم في حياة الفقراء، وكفلت الأوقاف حياة طيبة لطلاب العلم ورواتب شهرية ومخصصات سنوية بالأعياد ومقررات الخبز واللحم، كما أن كثيراً من أموال الأوقاف تنفق على يتامى المسلمين على شكل رواتب نقدية أو أطعمة (محمد، 2011م، 115- 116، 125).

استخدم الفقراء أساليب كثيرة للتعبير عن سخطهم ومعارضتهم للسلطة الحاكمة منها المظاهرات التي تملأ الشوارع في حالة انعدام الحصول على المواد الغذائية والمجاعات فضلاً عن السخرية باستعمال الرموز والأشعار والأمثال الشعبية أو خيال الظل (محمد، 2011م، 130-

(*)معظم المعالجات التي قام بها السلاطين تمثلت في تفريق الطعام على الفقراء أو دعم السعر بصورة مرحلية فضلا عن التعديل الضريبي الذي لا يستمر فترة طويلة، وإنما يكون قد وضع لأجل امتصاص نقمة العامة؛ ينُظر: ابن دقماق، 1985م، ج2، 72، 237؛ المقريزي، 1997م، ج 2، 5؛ ابن إياس، 2006م، 117-118.

131)، كما أنهم شكلوا خطراً على بعض رجالات الدولة بسبب سياستهم التعسفية، مما جعل الدولة تلجأ إلى دفن الولاة الظالمين في مقابر النصارى خوفا عليهم من استخراج جثتهم وحرقها، وقام العوام بثورة عام (820هـ/1417م) بسبب ظلم واليهم فحلقوا لحيته وشهروه على جمل والمغنيات تغني عليه ثم قتلوه، وجعل السلاطين للفقراء نصيبا من ثروتهم للتزلف لديهم منها تغسيل موتاهم وتوزيع الخبز عليهم (عاشور، 1992م، 46).

لقد عالج سلاطين المماليك الاضطرابات التي قامت بها الطبقات الشعبية بعدة طرق تمثلت الأولى في إجبار الحرافيش على العمل بالسخرة في بناء الجسور السلطانية أو العمارة كنوع من العقوبة على تجاسرهم على القيام بأعمال معارضة للسلطة الحاكمة (النويري، (د.ت)، ج33، 19- 178؛ اليوسفي، 1986م، 450).

والثانية: اتسمت بتفريق الهبات على الحرافيش أو توزيعهم على الأمراء للإنفاق عليهم أثناء حدوث مجاعات، وهو ما حدث في عهد السلطان بيبرس وتحديداً عام (661هـ/1263م) (ابن دقماق، 1985م، ج2، 72)، وفي عام (912ه/1506م) أمر السلطان قنصوه الغوري "بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج، فاجتمع هناك الجمّ الغفير من الفقراء والحرافيش، ونزل السلطان بنفسه...وصار يعطي لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة، وكبير وصغير أشرفياً ذهباً، فوقع الازدحام بين الفقراء حتى قتل منهم في ذلك اليوم ثلاثة أنفار من شدة ازدحامهم" (ابن إياس، 2008م، ج 4، 94)، كما قام عام (914ه/1508م) "بجمع الحرافيش فاجتمع هناك السواد الأعظم من الرجال والنساء، ففرّق في كل واحد منهم نصفين فضة، فقيل أنه فرّق في ذلك اليوم نحواً من أربعمائة دينار" (ابن إياس، 2008م، ج 4، 141).

أما الطريقة الثالثة فجاءت على شكل التخفيف من العبء الضريبي عن طريق إلغاء بعض الضرائب بين الفترة والثانية، ومن بين الضرائب التي تم إلغاؤها في مراحل تاريخية مختلفة زكاة الدولبة، ومكس مقرر الحوائص والبغال، ورسوم الولاية، ومقرر السجون، وحقوق السودان، وضمان القراريط، ومكس القمح، ومقرر رسوم الأفراح، وضمان الأغاني، وحقوق القينات، ومكس ساحل الغلة، ومكس مقرر الأردب، ومتوفر الجراريف، وضمان بحيرة البقر في القاهرة، ومكس نصف السمسرة، وكشف المراكب وتعريف الغلال بمنية ابن خصيب وهي ضريبة تجبى من أهل البرلس وشوري وبلطيم على صيدهم الأسماك، وضمان المزر وهو نبيذ مُصنّع من الذرة والقمح والشعير، وضمان الحشيش والخمور، ورسوم الولاية من أعمال الدقهلية والمرتاحية، وزكاة الدولة، ومكس المبشر،

وجباية وفاء النيل التي تجبى من كل أهل مصر، ومقرر طرح الفراريج، ومقرر الفرسان والأقصاب والمعاصر، ومقرر المشاعلية وغيرها(ابن دقماق، 1985م، ج 2، 155، 238؛ ابن أيبك الدواداري، 1970م، 92؛ المقريزي، 1998م، ج1، 256- 228، 304- 307؛ المقريزي، 1997م، ج 2، 122)، مع ملاحظة أن هناك تذبذب في مسألة الإلغاء وإعادة فرض نفس الضرائب كلما احتاجت الدولة إلى الأموال، وكانت هذه الضرائب تشكل عبئاً كبيراً على دافعي الضرائب الذين كان معظمهم من الفقراء.

لقد قامت الدولة بتقديم بعض الخدمات المجانية للفقراء بالإضافة إلى بناء بعض المؤسسات الخيرية كالخوانق وغيرها، فقد كان من بين العمائر الخدمية البيمارستانات المخصصة للصدقة التي يحصل المرضى من الفقراء على العلاج المجاني فيها، فضلاً عن حصولهم على الأدوية دون مقابل (اليوسفي، 1986م، 355).

حاول السلاطين القضاء على الفساد الذي كان عاملاً مهماً في زيادة المظالم كالمكوس والضرائب، فعملت الدولة على مهاجمة أوكار الفساد للتفريج عن العامة، وطبقت إجراءات اقتصادية من جانبها: كالتسعير، وإلزام الخبازين والطحانين بفتح حوانيتهم، فضلاً عن دور المحتسب في مراقبة السوق ومعاقبة الأشخاص الذين لا يلتزمون بأعمالهم بصورة صحيحة حيث يقوم المحتسب بختم القدور، ومراقبة المكاييل والموازين، ومتابعة المطففين، وفحص الخبز للتعرف على وزنه وغيرها من الأعمال التي يقوم بها (محمد، 2011م، 153).

ويتضح من الروايات التاريخية المطلع عليها، وجود دور كبير للحرافيش في الفوضى الداخلية التي تحدث بين الحين والآخر ضد بعض السياسات التي يطبقها سلاطين المماليك، وذلك بالمشاركة في الفتن التي جاءت رداً على بعض تصرفات بعض أمراء المماليك ضد الفئات الشعبية، أو في محاولة للتسبب بحدوث فتنة تسهم في وجود حالة من الفوضى تساعدهم على القيام بعمليات نهب لما يمكن الوصول إليه من أموال تخص مجموعات متنوعة من الفئات الاجتماعية مثل الأمراء والتجار وغيرهم (محمد، 2011م، 140- 142)، وتكمن خطورة بعض انتفاضاتهم في أنها تتم في حالات الحرب، الأمر الذي يربك الجيش ويسهم في حدوث حالة تمرد (اليوسفي، 1986م، 398- 399).

ويمكن القول بأن دافع الاضطرابات قد يكون محاولة لتفريغ مشاعر السخط والتمرد الكامنة في نفوسهم ضد رموز السلطة بسبب أن مظاهر التكافل الاجتماعي التي يقوم بها السلاطين

تجاه فئة الحرافيش لم تكن ثابتة ودورها مؤقت يعمل على التخفيف من أعبائهم الاجتماعية والاقتصادية دون معالجتها (الوقاد، 1999م، 166).

إن المحاولات الإصلاحية التي قام بها السلاطين لم تكن معالجات نهائية، وإنما ترتبط بالحالات التي تمت معالجتها وتتسم في بعض الأحيان بأنها قابلة للتجريب، ويمكن تقديم نموذجاً يرجع لعهد السلطان الظاهر بيبرس تمثل في مجموعة إجراءات اعتمدها عندما ارتفعت الأسعار عام (662هـ/1263م) منها: أنه وضع أسعاراً للسلع الغذائية مما نتج عنه زيادة الأسعار وفقدان الخبز من الأسعار، ثم عقد اجتماعاً مع الفقراء عند أبواب القلعة حيث تبين له من خلال المناقشة خطأ سياسته، فذهب إلى دار العدل وألغى تسعير السلع الغذائية، وأصدر أمراً بفتح الأهراء وأن يباع مقدار خمسمائة أردب مقسماً على ويبتين(*) لكل فقير لاسيما الضعفاء والأرامل، وطلب من الحجاب إعداد قوائم بأسماء الفقراء الموجودين عند أبواب القلعة، وأرسل آخرين لإعداد قوائم بالفقراء المقيمين في القاهرة والفسطاط وحواضرهما، كما قام بتقسيم الفقراء إلى مجموعات، فأخذ لنفسه مجموعة ولنواب ابنه السعيد مجموعة أخرى، وأعطى لكل أمير وفق إمكانياته مجموعة منهم، وكذلك الأجناد ومماليك الحلقة والمقدمين والبحرية وذلك للإنفاق عليهم لمدة ثلاثة أشهر على أن يعطى كل فقير نصف درهم، ويبدأ الإنفاق في اليوم التالي (النويري،2004م، ج 30، 59)، وقد نتج عن سياسته انخفاض في الأسعار وكثرة في الخبز (النويري،2004م، ج 30، 60).

بين نص للمقريزي مؤرخ بعام (696هـ/1296م)، وذلك عند حديثه عن الغلاء الذي حدث في عهد السلطان كتبغا، أنه قد سبق حدوث الغلاء مجموعة من المعالجات وذلك عام (695هـ/1295م)، تضمنت خطوات منها كسر بحر أبي منجا قبل آوانه بثلاثة أيام، خوفاً من نقص المياه في نهر النيل، وإخراج الغلال من الأهراء، وتفريقها على المخابز والجرايات، حيث حددت لكل صاحب جراية ست جرايات في شهرين، ومصادرة الولاة والمباشرين، وطرح البضائع على التجار بأثمان عالية (المقريزي، 2007م، 106- 107)، ويبدو أن هذه السياسة لم تنجح، لذا حدث الغلاء عام (696هـ/1296م)، وساءت الحالة المعيشية، واختفت السلع الغذائية، أمر السلطان بجمع الفقراء وذوي الحاجات وفرقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير، وإلى أمير الخمسين خمسين فقيراً، ولأمير العشرة عشرة فقراء(المقريزي، 2007م، 109).

(*) الويبة: مقياسحجم قدره أربعة وعشرون مُداً، (دهمان، 1990م، 156).

أسهمت سياسة طرح البضائع على التجار في الإضرار بالتجار الصغار، مما أدى إلى انتقال الأغنياء ممن خسر أمواله إلى الطبقة الفقيرة، بالإضافة إلى انعكاس ذلك الأمر بشكل مباشر على الأسعار، كما أن الشراقي(*) يؤدي بطبيعة الحال إلى تناقص الغلات الزراعية بما يؤثر على العامة.

على أنه قد لا يكون من الصواب ربط الحرفشة بالانهيار الاقتصادي لدولة المماليك، ذلك أننا نجد هذه الفئة موجودة حتى خلال مراحل ازدهارها، إذ إن المرحلة الأولى من حكم المماليك قد شهدت انتعاشاً اقتصادياً مهماً ولكن ذلك لم يمنع من وجود أزمات أفرزت انتفاضات ضد الوضع الاقتصادي (النويري،2004م، ج 30، 59- 60).

لقد أصبح التدهور الاقتصادي في مصر خلال النصف الثاني من حكم المماليك والمعروف بحكم المماليك الجراكسة واضحاً بسبب قصور الإنتاج الزراعي عن الوفاء بحاجة البلاد من ناحية، وكثرة اختفاء الخبز والقمح بشكل ملحوظ من ناحية ثانية (محمد، 2011م، 27)، إذ اعتبر الخبز مؤشراً مهماً يوضح استقرار أحوال الطبقات الشعبية اليومية، وهو ما دعا المصادر التاريخية إلى الاهتمام بالحديث عنه وعن توفر القمح من عدمه، وذكرت أن الخبز كان متوفراً في النصف الأول من عصر المماليك، في حين عانت الأسواق من نقصه في النصف الثاني منه (الوقاد، 1999م، 133- 134)، فضلا عن تقلص النشاط التجاري الداخلي، وانكماش السوق، وانهيار النظام النقدي، الأمر الذي أدى إلى حدوث الفتن والاضطرابات، وفقدان الحكام السيطرة على مقاليد الأمور.

ساعدت عوامل كثيرة على خراب واضمحلال القرى من أهمها: انقطاع مياه الري من الوصول إليها وغرق المساكن لارتفاع الفيضان، أو قطع جسور النيل، وتسلط الرمال على أرض القرى المجاورة للصحارى، نتيجة الرياح بالإضافة إلى الضرائب الهائلة، وتكليف الأهالي بأعمال السخرة (محمد، 2011م، 25)، مما دفع بعض الطبقات الشعبية إلى الانضمام إلى الحرافيش، وكانت الضرائب سبباً من الأسباب الأساسية في إثارة الطبقات الشعبية حتى وإن كان فرضها جاء بسبب تجهيز الجيش للدفاع عن البلاد (الوقاد، 1999م، 126- 127).

أسفر اعتماد اقتصاد مصر على فيضان نهر النيل في تشارك كل المجتمع المصري بمختلف طبقاته في الأزمات التي يخلّفها انخفاض معدل المياه فيه، وبذلك يصبح الفقر حالة مجتمعية وليست فردية فضلا عن أنها مؤقتة تنتهي بعودة نهر النيل إلى معدله الطبيعي، ولكن تأثيرها يختلف

(*) **الشراقي**: كل أرض لم يصل إليها الماء، إما لقصور النيل أو علو الأرض، أو سُد طريق الماء عنها، (المقريزي، 1998م، ج 1، ص 289).

باختلاف القدرة المالية لكل فئة من المجتمع، ونتج عن حالة الفقر التي عاشها الحرافيش بأن تحولوا إلى التسول، وأصبحت كلمة الحرافيش في العهد المملوكي ذات مدلول عام، أطلق على كل الفقراء سواء كانوا من الحرافيش في المدلول الخاص أو السوقة وأصحاب الحرف الدنيئة(محمد، 2011م، 22، 38).

لم يستمر تنظيم الحرافيش في المحافظة على أفكاره، وإنما بدأ الحرافيش يمتهنون التسول أو الشحاذة، حيث ذكر السبكي أن "كثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة فيسألون من غير حاجة ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون المصلين ولا يدخلون للصلاة معهم" (السبكي، 1980م، 212).

لقد احترف بعض الحرافيش التسول في الأماكن العامة بخاصة المساجد في أيام الجمع والأعياد، مستخدمين كشف عوراتهم لاستدرار عطف الناس، واتخذ بعضهم مظاهر التدين الزائفة لاسترقاق قلوب المارة، وكانت عادة التسول تبدأ بالشحاذة بالحاجة ثم تتحول إلى حرفة (محمد، 2011م، 95- 96).

وقد انتقد السبكي الشحاذة التي مارسها الحرافيش في الطرقات مبيناً أحوالهم في نص مهم جاء فيه "كان من الممكن أن يخرس لسانه فيعجز عن السؤال ويقعده فيعجزه عن السعي ويقطع يديه فيعجز عن مدها إلى غير ذلك، فعليه أن لا يلحّ في المساءلة بل يتقي الله سبحانه ويحمل في الطلب، وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة فيسألون عن غير حاجة، ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون المصليين ولا يدخلون للصلاة معهم، ومنهم من يقسم على الناس في سؤاله بما تقشعر الجلود عن ذكره وكل ذلك منكر، وبعضهم يستغيث بأعلى صوته لوجه الله: فلس، وقد جاء في الحديث لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، وبعضهم يقول بشيبة أبي بكر: فلس، فانظر ماذا يسألون من الحقير وبما يستشفعون من العظيم، ويراهم النصارى واليهود ويرون المسلمين وربما يعطوهم شيئا فيتشمتون ويسخرون، وربما كان المسلم معذوراً في المنع والكافر لا يفهم، إلا أن المسلمين لا يكترثون بذلك ورأى في مثل هذا الشحاذ أن يضرب بالسياط حتى يرجع عن ذكر الله تعالى، وذكر شيبة أبي بكر ونحو ذلك في هذا المقام، ومنهم من يكشف عورته ويمشي عرياناً بين الناس يوهم أنه لا يجد ما يستر عورته إلى غير ذلك من حيلهم ومكرهم وخديعتهم"(السبكي، 1980م، 211- 213).

كان لانتشار الفقر والفاقة واليأس في أواخر العهد المملوكي دور في إقبال كثيرمن الناس على التصوف فراراً من ظلم المماليك، فضمت الخوانق والربط والزوايا عدداً كبيراً من الدخلاء الذين انخرطوا في التصوف فراراً من الحياة القاسية، وليس رغبة في الانقطاع للتدين، فانصرفوا عن

الدين، وبحثوا عن ملذات الحياة حتى أن أحدهم يرتبط بأكثر من خانقاه طمعاً في المال (عاشور، 1992م، 193).

الخاتمة:

إن عدم اهتمام المصادر التاريخية بالنخب الاجتماعية لا يعني عدم وجود معلومات عن بقية الطبقات الاجتماعية التي ظهرت في مصر خلال العهد المملوكي، ومن بين هذه الفئات الاجتماعية المهمشة نجد الحرافيش، وهو مصطلح أُطلق في الفترة الأيوبية على فرقة شعبية من المشاة الرجالة الذي يرافقون الجيش الأيوبي، ثم أصبح يعبر عن فئة من الشحاذين والمعوقين والمصابين ببعض العاهات، والتي تعتبر من أحط طبقات المجتمع، الذين تميزوا بألبستهم الرثة ونزعتهم إلى الهرطقة واستعدادهم للثورة والفتنة في كل ظرف، وامتهنوا النهب والسرقة.

ظهر أول ذكر للحرافيش في عهد المماليك خلال عهد السلطان الظاهر بيبرس، وهم مجموعة فقيرة دافعت عن حقوقها باستخدام عدة وسائل منها التدخل في عدم تنفيذ العقوبات التي حكم بها السلاطين على بعض الأمراء الذين كانوا يقدمون الدعم للحرافيش، كما أنهم امتهنوا السلب والنهب في حالات الحرب، ويبدو أنهم كانوا يرافقون الجيوش المملوكية بهدف الحصول على جزء من الغنائم عن طريق السلب.

لقد تمكن الحرافيش من تنظيم أنفسهم في جماعات تحمل فكرة واضحة خلال العهد المملوكي، وكان لهم قيادات تدافع عن مصالحهم، كما كانت لهم مشيخة يقودها شخص منهم حيث ذكر ضمن أحداث عام (850هـ/1446م)، أن اسمه كان حسن، وأنه تولى المشيخة بعد شخص آخر اسمه أبوبكر عن طريق بذل مال له، ويُعتقد أن السلاطين قد استحدثوا لكبيرهم منصب سلطان الحرافيش بهدف ضبط هذه الجماعة من باب الحد من طغيانهم تجاه الدولة نتيجة نزعتهم للهرطقة واستعدادهم للثورة والفتنة في كل ظرف.

استطاع الحرافيش تبني رؤى وأفكار جديدة ثورية تحمل مفاهيم نفعية من خلال الاستعانة بقيادات من المماليك السلطانية من بينهم دولات خُجا الظاهري أحد المماليك السلطانية، الذي كان والي القاهرة ومحتسبها حيث تولى الحبسة عام (841هـ/1437م)، وتبين الروايات التاريخية أنه كان من أوباش المماليك السلطانية، لذا أصبحت الحرفشة تمثل وجهة نظر كل من له مصلحة من الجند البطالين الذين لم يتحصلوا على أخباز، أو ممن أراد الحصول على مكاسب معينة من خلال الانضمام إليها.

لقد بدأ تنظيم الحرافيش كحركة قام بها الفقراء لتحسين وضعهم المعيشي، والحصول على القوت باستخدام النهب والسلب، ولكنه تحول إلى حركة تحمل فكراً ثورياً، وازداد قوة بفعل من انضم إليه ممن يحمل فكرة تتجاوز مجرد الحصول على الغذاء.

ساعدت الدولة في تزايد عدد المنضمين للحرافيش نتيجة عدم محاولتها القضاء على الفقر الذي عانى منه كثير من المصريين آنذاك بطريقة ناجحة، حيث اقتصروا على إعطائهم القوت خلال الازمات، دون تقدم معالجة واضحة ومحددة للتخلص من الفقر، بسبب عدم قدرتها أو رغبتها في ذلك.

وكان من بين المعالجات القضاء على الفساد في الجهاز الإداري والمالي، وتطبيق اجراءات اقتصادية للقضاء على الأزمات كالتسعير وإلزام الخبازين والطحانين بفتح حوانيتهم، فضلا عن دور المحتسب في مراقبة السوق، ومعاقبة الأشخاص الذين لا يلتزمون بأعمالهم بصورة صحيحة، وهذه المحاولات الإصلاحية لم تكن معالجات نهائية، وإنما ترتبط بالحالات التي تمت معالجتها وتتسم في بعض الأحيان بأنها قابلة للتجريب.

لم يستمر تنظيم الحرافيش في المحافظة على أفكاره، وإنما تحول الحرافيش إلى متسولين يرتدون ثياباً رثة ممزقة، ويجلسون على أبواب المساجد، وهم يمدون أيديهم طلباً للمال أو الطعام، وقام بعضهم بالانضمام إلى المتصوفة في الخوانق رغبة منهم في الحصول على حياة كريمة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا- المصادر:

1. ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، تاريخ ابن الفرات، نشر: حسن محمد الشماع، الناشر جامعة البصرة، بغداد، (د.ت)، ج 8.
2. ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط 3، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2008م، ج1، ق 2.
3. ابن إياس، محمد بن أحمد،جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق وتعليق: محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2006م.
4. ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية (كنز الدرر وجامع الغرر)، تحقيق: أولرخهارمان، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1970م.
5. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق

وتقديم: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م.

6. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدمه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج7.

7. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، مورد اللطافة في من ولي السلطة والخلافة، تحقيق ودراسة وتعليق: نبيل محمد عبدالعزيز أحمد، دار الكتب العلمية، 1997م.

8. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن إيدمر، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1985م، ج2.

9. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: محمد عبدالعزيز النجار، ط1، دار الغد العربي، القاهرة، 1992م، ج 18.

10. ابن منظور، جمال الدين أو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

11. الحنبلي، محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، تصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

12. السبكي، أبي نصر عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، تصحيح وطبع: داوود ولهلم موهرمن، ليدن، بريل، 1980م.

13. السخاوي، محمد بن عبدالرحمن، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: نجوى مصطفى كامل، لبيبة إبراهيم مصطفى، مراجعة: سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2002م، ج1.

14. الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1، دار ابن قتيبة، الكويت، (د.ت).

15. المقريزي، أحمد بن علي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، دراسة وتحقيق: كرم حلمي فرحات، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007م.

16. المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

17. المقريزي، أحمد بن علي،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، ط1، مكتبة مدبولي، 1998م.

18. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، (د.ت)، ج 32، 33.

19. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 2004م، ج 30، 31.

20. اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1986م.

ثانيا- المراجع:

1. الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1،مؤسسة الرسالة، 1996م.

2. دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخيةفي العصر المملوكي، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1410ه/1990م..

3. الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1995م.

4. دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، تعريب وتعليق: محمد سليم النعيمي ط1، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1981م، ج 3.

5. ضومط، أنطوان خليل، الدولة المملوكية- التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1980م.

6. عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، 1992م.

7. الوقاد، محاسن محمد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (648- 923ه/1250-1517م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين (152)، فرع الصحافة، 1999م.

8. عارف، رفاه تقي الدين، العامة في بغداد في العصر العباسي الأول والثاني (132-334ه/749- 946م)، (مجلة سر من رأى، بغداد، السنة السابعة)، مج 7، ع 25، 2011م.

9. محمد، أحمد عبد الرزاق عبد العزيز، الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين – الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الزقازيق، 2011م.